

تطوّر مفهوم (النحو) من الشمول إلى التخصيص

تاريخ استلام المقال: 2014/06/18 تاريخ قبول المقال للنشر: 2016/03/17

د. عبد العزيز أبليله

جامعة أدرار

كلية الآداب واللغات

الملخص:

يتناول هذا البحث معالم التطوّر الدلالي الذي جازه مصطلح (النحو) عند اللغويين العرب ثمّ عند نظرائهم الغربيين حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكذلك تفسير هذا التطوّر وبيان بعض آثاره العلميّة وغيرها.

وفحوى هذا التطور هو انتقال هذه المادّة من المعنى اللغويّ العامّ إلى المعنى العلميّ العامّ وهو الدراسة العلميّة للغة، ثمّ انتقالها منه إلى المعنى العلميّ الخاصّ وهو دراسة الجانب التركيبيّ منها خاصّة.

Abstract :

This research deals with the semantic evolution of the term validation of parameterstreated by Arabs linguists and their Western counterparts until the late nineteenth century and early twentieth century. Similarly, the research discusses the interpretation of this development and the statement of some scientific and other effects.

مقدمة:

إنّ استقراء تراث الدراسات اللغوية بعامّة - تُوقّف الباحث على وجود تطوّر في مضمون هذا المصطلح من الشمول إلى التخصيص في استعماله، وإذا كانت هناك كلمات أخرى شاركت هذا المصطلح دلالاته العلميّة؛ مثل (العربية) و(الإعراب) و(الكلام)، وستردّ في بعض سياقات البحث، فإنّ التركيز الأكبر سيكون على المصطلح المختار للدراسة. وسيجتهّد هذا البحث في تعرّف معالم هذا التطوّر عند اللغويين العرب ثمّ عند غيرهم من اللغويين حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكذلك في تفسير الطورين اللذين جازهما المصطلح وبيان بعض آثار كلّ منهما من خلال العناصر الآتية.

تمهيد:

1- المعاني اللغوية والمعنى الاصطلاحيّ لمادّة (ن ح و).

2- مفهوم الشمول و التخصيص.

أولاً: مفهوم (النحو) عند العرب من الشمول إلى التخصيص.

1- مفهوم النحو عند العرب في طور الشمول

2- مفهوم النحو عند العرب في طور التخصيص

ثانياً: مفهوم (النحو) عند غير العرب من الشمول إلى التخصيص

1- مفهوم النحو عند غير العرب في طور الشمول

2- مفهوم النحو عند غير العرب في طور التخصيص

تمهيد:

1- المعاني اللغوية و المعنى الاصطلاحي لمادة (ن ح و):

إن الارتباط المؤكد بين المعاني اللغوية وبين المعاني الاصطلاحية للألفاظ - يقتضي الباحث الوقوف على أكثر المعاني اللغوية استعمالاً وأقربها علاقة بالمعنى الاصطلاحي الجديد الذي حملته إياه أهل الاختصاص.

وإذا كان (لسان العرب) أضخم معجم عربي بين أيدي الباحثين فإن مطالعته يجد أن مؤلفه قد عرّض لأغلب هذه المعاني، وهي: القصد والتحريف والاعتماد والمثل والمقدار والجهة والقريب والطريق والنوع وبعض الشيء¹.

و من أقرب هذه المعاني علاقة بالمفهوم الاصطلاحي: القصد والطريق.

أ- القصد:

وقد صرح بعلاقة هذا المعنى بمصطلح (النحو)² الزجّاجي (ت337هـ) وابن جنّي (ت392هـ) وغيرهما من علماء العربية؛ فقال الأول مبيناً سبب إطلاق (النحو) على هذا العلم: إن أبا الأسود الدؤلي (ت69هـ) وضع كتاباً في أصول العربية ثم قال: «انحوا هذا النحو، أي: اقصدوه، والنحو القصد، فسمي لذلك نحواً»³. وقال الثاني عن مصطلح (النحو): «وهو في الأصل مصدر شائع، أي: (نحوت نحواً)، كقولك: (قصدت قصداً)، ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم،.....»⁴.

¹ - ينظر: لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، دط، دت: مادة (ن ح و).

² - تنتج الدكتور محمود فهمي حجازي استخدام المصطلحات في التراث اللغوي العربي، فوجد أن المشاركة يميلون إلى استعمال مصطلح "النحو" في حين أن المغاربة والأندلسيين كانوا يميلون إلى مصطلح "علم العربية"، ينظر: علم اللغة العربية، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1 (1973م) ص 20-21.

³ - الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجّاجي، تحقيق: د. مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط4 (1402هـ/1982م): 89.

⁴ - الخصائص، ابن حني، تح: د. عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية بيروت، ط2 (1424هـ/2003م): 88/1.

وقال ابن منظور: «و النحو: القصدُ والطريق، ونحوُ العربية منه»¹، ثم نقلَ عبارة ابن جنِّي بحذافيرها.

وقدّم جمال الدين الفاكهيّ (ت 973 هـ) لشرح التعريف الذي وضعه للنحو بذكر هذا المعنى اللغويّ وكونه مصدرًا²، بما يُشبهه كلام ابن جنِّي شبهاً واضحاً .

ب- الطريق:

قال الراغب الأصفهانيّ(502هـ): « النهج: الطريق الواضح ،ونَهَجَ الأمرُ وأنهَجَ: وَضَحَ ، ومنهَجُ الطريقِ ومنهَاجُهُ ؛ قال- تعالى:-﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾»³ .⁴

و إذا كان الطريق يقتضي سلوكه فإن ابن منظور ربطَ بينهما بقوله: « نهَجْتُ الطريق: سلكتُهُ»⁵، ثم رَبطَ بين معنَيي القصد والطريق وبين المفهوم العلميّ لمصطلح (النحو) في قوله السابق: «و النحو: القصدُ والطريق، ونحوُ العربية منه».

وإذا كان العرب يُطْلِقُونَ على عالم اللغة:(نحويّ) فإنّ غيرهم أيضاً يُطْلِقُونَ عليه ما يقابل هذا اللفظَ في لغاتهم ؛ مثل(gramatik) اليونانيّة ؛ نقل ابن منظور عن الأزهريّ (ت386هـ) أنّه ثَبَتَ عن اليونانيّين في بعض الترجمات « أَنَّهُمْ يُسَمُّونَ عِلْمَ الْأَلْفَاظِ وَالْعِنَايَةَ بِالْبَحْثِ عَنْهُ نَحْوًا ،ويقولون: كان فلانٌ من النَّحْوِيِّينَ»⁶.

و هذا الإطلاق نقلَ مادّة اللفظيّين (النحو) و(نحويّ) من معانيها اللغويّة الواسعة إلى المعنى العلميّ الضيّق متمثلاً في دراسة اللغة.

3- مفهوم الشمول و التخصص:

يعبّر هذان المصطلحان عن سمتين طبعتا دلالة دراسة اللغة خلال تطورها في تاريخ الحضارات الإنسانية، و هذا ما نوضحه فيما يلي:

أ- مفهوم الشمول:

¹ - ينظر: لسان العرب : مادّة (ن ح ا).

² - ينظر: شرح الحدود النحوية، جمال الدين الفاكهي ، تحقيق د. الطيب الإبراهيمي ، دار النفائس ؛ بيروت ، ط2(1417هـ/ 1996م)، ص 44.

³ - سورة المائدة : الآية48.

⁴ - مفردات ألفاظ القرآن ، تحقيق ناصر أحمد الدميّاطي ، مكتبة فياض للتجارة والتوزيع ، المنصورة - مصر ، دط (1430هـ/2009م) : مادّة (ن ه ج).

⁵ - لسان العرب: مادّة (ن ه ج).

⁶ - ينظر: المصدر نفسه: مادّة (ن ح ا).

تحدث علماء اللغة عن مظاهر التطور الدلالي في الكلمات فذكروا منها تعميم دلالة الكلمة ، و هذا يعني أن الكلمة « تُطلق على معنى يشمل معناها الأصلي ومعاني أخرى تشترك معه في نفس الصفات »¹.

وإذا كان التعميم أصلاً في دلالة كثير من الكلمات فإنّ (النحو) كان يدلّ على دراسة اللغة دلالة عامة تستوعب مفاصل البنية اللغوية أصواتاً وصيغاً و تراكيب في استعمال العلماء العرب لقرنين أو أكثر، و كذلك ما يقابل هذا اللفظ عند غيرهم لأكثر من عشرين قرناً.

ب- مفهوم التخصيص:

لاحظ علماء اللغة كذلك أن معنى الكلمة قد يطرأ عليه ما أسموه تخصيص الدلالة؛ أي إنّ الاستعمال يضيقه حتى لا « يُطلق إلا على بعض ما كانت تُطلق عليه من قبل »².

وقد انطبق هذا المفهوم على دلالة (النحو) بعد انتقال دراسة اللغة إلى طور ثانٍ فقد أصبحت الكلمة في اصطلاح العلماء قاصرة على دراسة بعض المفاصل اللغوية ، و كذلك ما يقابل هذا اللفظ عند غيرهم.

وأما حيثيات هذا التطور الدلاليّ ومتعلقاته فيتكفل ببيانه المبحثان اللاحقان.

أولاً: مفهوم "النحو" عند العرب من الشمول إلى التخصيص:

من المسلّم به في تاريخ اللغة الإنسانية أنّ التفكير فيها وضعاً وكتابةً ووصفاً وتقعيداً - قديم قديم الإنسان نفسه، على ما بين هذه الجوانب من تفاوت زمني واضح ؛ فالوضع - أو النشأة³ - أقدم من الكتابة ، وهي أقدم من الوصف و التقعيد وبقية الجوانب.

وكان غاية ذلك التفكير - الوصول « إلى نظرية أو نظريات عامّة في اللغة تكشف عن حقيقتها نشأةً وتطوراً، وتبرز القوانين أو الأصول العامّة التي تشترك فيها لغات البشر، وتُعين على تحديد وتدقيق مناهج الدراسة اللغوية ووسائلها »⁴.

فالهنود واليونان والرومان والعرب - كل أولئك قد خدموا لغاتهم بما توافر لهم من إمكانيات، فصنّفوا أصواتها وبيّنوا مواضع نطقها وكيفية وصفاتها وعلاقات بعضها ببعض، كما عرضوا لما عُرف بـ (الفصائل النحوية) أي أقسام الكلام ، وكذا قضية العلاقة بين الكلمة وبين ما تطلق

¹ - علم اللغة د. علي عبد الواحد زافي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ط 11 (2006م): 314.

² - المرجع نفسه: 314.

³ - هذا المصطلح أشمل من مصطلح (الوضع)؛ لأنّه يعبر عن القضية التي بحثها اللغويون في تاريخ أكثر اللغات المدروسة .

⁴ - علم اللغة (مقدمة القارئ العربي)، محمود السمران، دار النهضة العربية ، بيروت، ط 1 ، دت ، ص 11.

عليه: هل هي طبيعية أم اصطلاحية؟ ومن ثمَّ علاقة اللغة بالواقع الاجتماعي¹.

ووجه بعضهم عنايته إلى ألفاظ لغتهم فجمعوها ودرسوها عبر موضوعات دلالية جامعة كخلق الإنسان والمطر والشجر والغريب والتضاد والاشتراك والترادف، وألفوا معاجم صغاراً ووسطى و ضخماً جمّعوا فيها ألفاظ اللغة - كما فعل العرب وغيرهم من الشعوب².

ونصل بعد هذه التوطئة التاريخية إلى أهم التطورات التي شهدتها مفهوم النحو عند اللغويين العرب، وهو ما نوجزه في طوئين.

1- مفهوم النحو عند العرب في طور الشمول:

لقد اقتضى السياق التاريخي الذي نشأت فيه العلوم عند العرب امتزاجاً قوياً بين الفروع العلمية لغوية أو شرعية أو عقلية أو طبيعية، فكانت دراستها مختلطة غالباً ما يضمها محل واحد.

وانطبق هذا الأمر على كلّ حقل من تلك الحقول العلمية أشدّ ما يكون الانطباق، وعلى الحقل اللغويّ خاصة في مراحله الأولى؛ فالمشتغلون به لم يكونوا يفرّقون بين بعض موضوعاته وبعض؛ فلم يفصلوا الموضوعات الصوتية عن الموضوعات الصرفية أو دراسة الأبنية، ولا فصلوا هاتين الدراستين عن دراسة التأليف أو التركيب، وهي دراسة النحو بالمعنى الخاص³.

وهذا الامتزاج أو الاتصال بين فروع الدراسة اللغوية في بداياتها طبيعي ومنطقي جداً، وذلك بالنظر إلى عدّة عوامل أهمها⁴:

أ- أنّ هذه الفروع مكوّنات لبنية واحدة، وهي اللغة، والحدود بينها « غير واضحة تماماً ومتشابكة»⁵.

ب- أنّ عوامل قيام هذه الدراسة - مشتركة بين هذه الفروع، وأهدافها المنشودة مشتركة بينها كذلك؛ وأهمها إصلاح الملكة اللغوية وإيجاد آليات علمية لفهم النصوص الشرعية وتمكين الأمم الأخرى الدخيلة على المجتمع العربي من تعلّم العربية والغيرة على اللسان القومي.

¹ - ينظر: علم اللغة: ص 87- 91، و أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، د. نايف خرما، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط 2 (1398هـ/1978م): 95 - 98.

² - ينظر: علم اللغة: ص 87- 94، و أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة 98 - 100.

³ - ينظر: ابن عصفور والتصريف، د. فخر الدين قباوة، دار الفكر المعاصر - بيروت، و دار الفكر - دمشق، ط 1 (1971م): 33، ومدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت، ط 3 (1406هـ/1986م)، ص 164، و ينظر: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، د. محمد حسين آل ياسين، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ط 1 (1400هـ/1980م): 78.

⁴ - ينظر: مقدمة لدراسة علم اللغة، د. حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط (2003): 36 - 37، ونشأة الدراسات اللغوية وتطورها عند العرب بين وقائع الاتصال ودعوات الإدماج، عبد العزيز أبليله، بحث مخطوط.

⁵ - أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة وتعليق د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط 8 (1419هـ/1998م): 44.

ج - تأثر الواضعين لأسس هذه الدراسة بالمناخ الثقافي والحضاري السائد في بيئتهم، وهو مناخ عربي إسلامي أمد تلك الدراسة بخصائص منهجية، ولعل من أهمها تأثيراً - الاعتماد على الرواية الصحيحة وتحري الثقة بالناقل علمياً وأدبياً، وتحكيم العقل.

وقد أُطْلِقَتْ كلمة (النحو) أولاً على كل مظاهر الدراسة اللغوية للعربية ابتداءً بنقط أبي الأسود الدؤلي للمصحف الشريف علاجاً لمشكلة اللحن في حركات الإعراب¹، ومروراً بنقط الإعجام الذي نهض به نصر بن عاصم و يحيى بن يعمر وعبد الرحمان بن هرمز من تلامذة الدؤلي².

وهذا المعنى لكلمة (النحو) - هو الذي حملته أغلب الكتب التي ألفها علماء العربية حتى القرن الرابع الهجري تقريباً، إذ تضمنت تلك المؤلفات معالجة للقضايا النحوية والصرفية والصوتية والدلالية، وإن كانت الأولى أكثر من غيرها³، ولا سيما (كتاب) سيبويه و (معاني) القراء و (معاني) الأخفش و (مقتضب) المبرد.

وإذا اتخذنا كتاب سيبويه مثلاً على عموم معنى (النحو) آنذاك - وجدناه يبسط مسائل التراكيب التحويلية في أغلب أبوابه بعد ابتدائه بالتقسيم الثلاثي للكلام في « باب علم ما الكلم من العربية »⁴.

ويستمر الحال على ذلك النهج في أكثر من ثلثي (الكتاب)، ثم يجد مطالع بعد هذا كله دراسة للكلمات من حيث أوزانها والتغيرات التي تلحقها من تثنية وجمع وتصغير ونسب⁵ دراسة للأصوات العربية من حيث عددها وأصولها وفروعها⁶، ومن حيث مخارجها وصفاتها⁷ وعلاقاتها التعليلية من إدغام وإمالة وإبدال وغيرها.

¹ - من أوليات الروايات في هذا النقط الرواية التي نصّها: « قالوا - أي الرواة - : فجاء أبو الأسود (الدؤلي) إلى زياد فقال له: أبغني كتاباً يفهم عليّ ما أقول، فجيء برجل من عبد القيس فلم يرض فهمه، فأتى بأخر من قريش غفّال: إذا رأيتني قد غتحت فمي بالحرف فانقط نقطة على أعلاه و إذا ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف ؛ و إذا كسرت فمي فاجعل النقطة تحت الحرف ؛ فإن أتبعث شيئاً من ذلك غتّ فاجعل النقطة نقطتين؛ ففعل ». مراتب اللغويين، أبو الطيّب اللغوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ببيروت، ط1 (1423 هـ / 2002م): 23، و ينظر: الفهرست، محمد ابن إسحاق النديم، تحقيق د. مصطفى الشويهي، الدار التونسية للنشر، و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط (1406هـ/ 1985 م): 191.

² - ينظر: الفهرست: 189.

³ - فصول في علم اللغة العام، د. محمد علي الدريني، عالم الكتب، بيروت، ط1 (1423هـ/ 2002م): 151.

⁴ - الكتاب، سيبويه، تح عبد السلام هارون، دار الجبل بيروت، ط1، د ت: 12/1.

⁵ - ينظر: المصدر نفسه: 4/ 43 وما بعدها.

⁶ - ينظر: المصدر نفسه: 4/ 432 - 454، و ينظر: فصول في علم اللغة العام: 171.

⁷ - ينظر: المصدر نفسه: 4/ 404، و 431 - 432.

وفي (الكتاب) دراسة لبعض القضايا الأسلوبية والدلالية؛ مثل المجاز في «باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام، والإيجاز والاختصار» و«باب وقوع الأسماء ظروفًا وتصحيح اللفظ على المعنى»، ومثل ذلك الإشارة إلى مباحث من فقه اللغة كالترادف والمشتراك والمختلف¹، و مباحث أخرى من علم الشعر².

إنّ هذه الصورة الوصفية الشاملة لموضوعات (الكتاب) تكشف لنا عن حقيقة منهجية سادت الدراسة اللغوية عند العرب بضعة قرون، وهي شمول مصطلح (النحو) لكافة فروع هذه الدراسة وعدم الفصل بين أحدها والآخر.

وفي القرن الثالث نجد أشهر نحاة البصرة أبا العباس المبرّد (ت 285هـ) يؤلف كتاب (المقتضب)، وهو ثاني كتاب نحويّ عربيّ شامل لجوانب مختلفة من العربية بعد كتاب سيبويه³.

وإذا انتقلنا إلى القرن الرابع، وجدنا مؤلفاً أشبه ما يكون بالموسوعة اللغوية المتكاملة - إلى حدّ ما - وهو كتاب (الخصائص) لابن جنيّ، فقد جمع كثيراً من المسائل اللغوية⁴ والصوتية و الصرفية و التركيبية والدلالية والعروضية، إلى كثير من المسائل في أصول اللغة والنحو كالسماع والقياس والعلة والعامل وغيرها.

وقد وضع الدكتور عبد الحميد هندراوي فهارس لموضوعات (الخصائص) تُغني مطالعتها في تعرّف جميع تلك المسائل التي درّسها ابن جنيّ فيه وبيان شمولها للبنية اللغوية. غير أنّ من الضروريّ الوقوف على تعريف ابن جنيّ للنحو بقوله: «انتحاء سمّت كلام العرب، في تصرّفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع، والتحقير والتكسير، والإضافة والنسب، والتركيب، وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شدّ بعضهم عنها رُدّ به إليها...»⁵.

فالتعبير بالانتحاء - هنا - يكاد يقطع بأنّ أبا الفتح يقصد إلى النحو التطبيقي الذي هو تحقيق الإنسان لما أدركه من معطيات اللغة في واقع الحياة، إذ إنّ المعبر به يحمل دلالة

¹ - ينظر: المصدر نفسه: 211/1-228.

² - ينظر: المصدر نفسه: 24/1.

³ - ينظر: مدرسة الكوفة: 163.

⁴ - ينظر: علم اللغة العربية: 86، و الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث: 102.

⁵ - الخصائص: 88/1،.

التكلف و الممارسة بمقتضى صيغته الصرفية (افتعال) ، وهو ما يؤيده تعليل ذاك التكلف بوصول غير العربي اللسان بالأصالة إلى درجته بالتعلم والممارسة.

فابن جني قد جمع في هذا القول بين فرعين من فروع الدراسة اللغوية علم اللغة الحديث بين دراسة الكلمة التي مثل لها بالثنائية والجمع والتحقيق - أي التصغير - والنسب، وبين دراسة الجملة التي مثل لها بالإعراب والإضافة.

وفي هذا أيضا إلماح إلى ذلك الشمول لمعنى (النحو) الذي أكدّه ابنُ جني بتعليل مذهبه في التعريف قائلاً: « ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم ، وإن شُدَّ بعضهم عنها رُدُّ به إليها »¹.

فاكتساب الكفاءة الإبداعية لا يتأتى بمعرفة بعض الظواهر اللغوية دون بعض، فلا النطق المحكم بالأصوات والتزام القوانين العلاقات المختلفة - بمغنٍ عن معرفة الصيغ الصرفية و دلالاتها التي وضعت لأدائها، وليست هذه المعرفة وسابقتها بكافيتين لإنجاز لسانِي يُتمر الإبانة والتبليغ عن حاجة النفس ما لم ينضم إليها جميعاً - معرفة بتركيب الجملة ومعرفة بالدلالات المعجمية للكلمات المكونة للجملة.

وظلَّ مصطلح (النحو) شاملاً لفروع الدراسة اللغوية قريباً من قرنين، ولكن هذا الشمول في الدراسة اللغوية والتأليف فيها - أصبح في غالب الأمر مصحوباً ببعض الاستثناءات، ابتداءً من القرنين الثالث والرابع ؛ فقد أُلْفِت كُتُب مستقلة في الأصوات من أهمها كُتُب ابن السكيت (ت244هـ) والزجاجي (ت337هـ) أبي الطيّب اللغوي (ت351هـ) في القلب والإبدال و(سر صناعة الإعراب) لابن جني.

و أُلْفِت كتب أخرى في الموضوعات الصرفية ؛ مثل كتاب " التصريف " للمازني (ت248هـ) و شرّحه " المنصف " لابن جني و "الأفعال" لابن القوطية (ت367هـ).

إنَّ ما يخلص الباحث إليه من هذا الرصد لمسيرة التأليف أو الدرس اللغوي خلال عدّة قرون - هو شمول مصطلح "النحو" غالباً لمختلف فروع ذلك الدرس، وأنَّ هذه الفروع كانت أجزاءً منه لا قسيمةً له، كما أنَّ هذا الشمول مؤسَّس على ما سبقت الإشارة إليه من العوامل اللغوية والثقافية والتاريخية التي نجمت العلوم في سياقها عند العرب .

¹ - الخصائص: 88/1، وقد صرَّح السيد علي حسن مطر بأنَّ عبارة ابن جني لم تحدّد حقيقة النحو بل " الغاية المتوخاة من تدوين هذا العلم ودرسته " ، مقال: " النحو لغة واصطلاحاً " . مجلة تراثنا ، العدد : 28 ، موقع ويكيبيديا ، تاريخ الزيارة: 2014/05/28م.

ويقوى الاعتقاد عند الباحث بأن هذا الشمول قد ترتب عنه شمول آخر طبع مفهوم علم أصول النحو الذي هو الإطار المنهجي لعلم النحو؛ قال ابن الانباري: «أصول النحو أدلة النحو التي تفرعت منها فروع وفصوله»¹.

فالأدلة المقصودة في التعريف تشمل ما يستعمل لإثبات أي مسألة لغوية أيًا كان مستواها، خلافاً للتخصيص المتباير من إضافة (الأدلة) إلى (النحو)، وأقوى برهان على هذا- تتوغل الأمثلة التي مثل بها المؤلفون في علم أصول النحو، ومنهم صاحب التعريف المذكور هنا. ومن آثاره التي يكشفها انتباه الباحث - أن تصنيف علماء العربية كان يركز على ثنائية اللغوي والنحوي، مما يدل على تضمّن العنصر الثاني لمن غلب عليه الاشتغال بالصرف؛ قال فخر الدين قباوة: «لقد طغت شخصية النحو، فلم نكد نرى حتى يومنا هذا في تراجم علماء التصريف المتقدمين من نسب إلى الصرف فقيل فيه: (عالم صرفي)، وإنما كان كل مناهم يعرف بأنه عالم نحوي»².

ويُعدّ المازني مؤلف أول كتاب في التصريف من أنسب الأمثلة التي توضح. هذه الملاحظة؛ إذ يُصنّف في عموم النحاة بالرغم من أوليته في التأليف الصرفي.

2- مفهوم النحو عند العرب في طور التخصص:

إن ما لوحظ من شمول النحو لكل مستويات العربية وتداخل هذه المستويات-كل ذلك تغير عند أغلب المؤلفين المتأخرين عن القرن الرابع؛ فقد جعل هؤلاء يقصرونه- أي "النحو"- على أحكام بنية الجملة، فيما خصّوا الصرف- أو التصريف- بأحكام بنية الكلمة. يقول زكريا الأنصاري (ت 925هـ): «وعلم التصريف: علم يعرف به أبنية الكلم التي ليست بإعراب»³. و يقول في تحديد مفهوم النحو: «و علم النحو: علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلم إعراباً و بناءً»⁴.

ومثله جمال الدين الفاكهي (ت 973 هـ) إذ قال في التعريف بالنحو: «فحدّه: علم بأصول يعرف بها أحوال الكلم إعراباً و بناءً»⁵، ثم عقّب عليه بقوله: «واعلم أن هذا الحدّ -

¹ - لمع الأدلة في علم أصول النحو (ضمن: رسالتان لابن الأنباري)، أبو البركات الأنباري، تحقيق أسعيد الأفغاني، دار الفكر، ط2 (1391هـ/1971م): 81.

² - ابن عصفور والتصريف: 53.

³ - اللؤلؤ النظيم في روح التعلم والتعليم، أبو زكريا الأنصاري، شرح وتعليق الدكتور عبد الله نذير أحمد المسمي "خزانة العلوم في تصنيف الفنون الإسلامية ومصادرها، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1 (1419هـ/1998م): 68.

⁴ - المصدر نفسه: 70.

⁵ - شرح الحدود النحوية: 44 - 45.

أي: التعريف- جارٍ على عُرِفَ الناس الآن مِن جَعَلَ علم الصرفَ قسماً برأسه غيرَ داخل في علم النحو، والمتعارفُ قديماً شمولُ علم النحو له ¹.

فالفاكهية ينبّه على أن تخصيص النحو بالأحوال الإعرابية والبنائية للكلمات - طارئاً على مفهومه عند المتأخرين ومخالف لما عهدَه أوائل النحاة فيه من الإطلاق أو الشمول، مما يعني اقتصره على دراسة التراكيب، دون القطاعات اللغوية الأخرى، وهو ما سيزداد وضوحاً بتتبع تطوّر المفهوم ذاته عند غير العرب.

ثالثاً: مفهوم النحو عند غير العرب من الشمول إلى التخصيص.

1- مفهوم النحو عند غير العرب في طور الشمول:

إن أقدم ما وصل إلينا من معلومات عن دراسة اللغة عند غير العرب - يعود إلى الهنود الذين نهضوا بهذا العمل حفاظاً على كتابهم الديني (الفيدا) ، ومن بعدهم الرومان واليونان ، وتواصلت مسيرة الفكر اللغوي حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً، ودراسة اللغة ممزوجة بالمنطق والفلسفة، أو قائمة لحفظ كتاب مقدس ، أو لتحقيق مخطوط وإعداده للنشر أو فك رموز الكتابات على النقوش للإفادة منها مما عُرِف بعلم الفيلولوجيا (philologie)، أو وسيلة لضبط اللسان حديثاً و كتابة ².

وكان الباحثون الأوروبيون يطلقون إلى ذلك الحين على علم اللغة مصطلحين هما (linguistics)، و (grammar)، وكانت كتبهم تضم « فصولاً في الأصوات وبناء الكلمة وبناء الجملة » ³.

ثم جاء (فريدناند دي سوسير) فنادى بضرورة أن تكون اللغة الإنسانية وحدها موضوع الدراسة الغويّة و هدفها، وذلك بأن يدرسها الدارس « دراسة موضوعية تستهدف الكشف عن حقيقتها، فليس من موضوع دراسته أن يحقق أغراضاً تربوية مثلاً، أو أية أغراض علمية أخرى » ⁴.

بل إن اللغوي الأمريكي (تشومسكي) الذي بدأ بناء نظريته اللغوية التحليلية التوليدية سنة 1957م - يعتبر أن موقع النحو (syntax) من اللغة هو بمثابة القلب من جسم الإنسان، أما كلمة القواعد و (grammar)، فهي عنده تشمل النحو بالإضافة إلى الصرف كما تشمل النظام الصوتي ونظام المعاني أيضاً. فهي بهذا اصطلاح شامل لجميع القواعد التي لها علاقة بجميع وجوه اللغة المختلفة ⁵.

ومثل (النحو) - كل مصطلح له علاقة به مثل "النحو الوصفي" يطلق عليه (discriptive grammar)، مرادفاً لعلم اللغة الوصفي (discriptive linguistics) و النحو التاريخي يطلق عليه

¹ - ينظر: شرح الحدود النحوية: 45.

² - ينظر: علم اللغة: 317-341 وعلم اللغة العربية: 32-57، ومقدمة لدراسة علم اللغة: 13.

³ - علم اللغة: 51 وينظر: مقدمة لدراسة علم اللغة: 26 - 27.

⁴ - علم اللغة العربية: 42، و ينظر: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: 299.

⁵ - ينظر: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: 299.

(historal grammar) مرادفاً لعلم اللغة التاريخي (istoral linguistics) وهذا يدلّ على استخدام كلمتي (grammar)، أي: نحو، و (linguistics) أي: علم اللغة - استخداماً واحداً في البحث العلمي اللغوي عند الغربيين¹.

وهذا التطابق في إطلاق المصطلحين - يودّي إلى ملاحظة شبه منهجي بين الدراسة اللغوية عند العرب و بين نظيرتها عند غيرهم في انطباع (النحو) بطابع الشمول قروناً عدّة.
2- مفهوم النحو عند غير العرب في طور التخصيص:

كان ذلك - إنن - طابع (النحو) أو الدراسة اللغوية عند غير العرب لأكثر من عشرين قرناً، ابتداءً بنشأة النحو

ولكن «منذ أواخر القرن التاسع عشر أخذ مفهوم اللغة وطبيعتها، ووظيفتها، ودراساتها في التغير. وقد أحدث هذا التغير جهوداً متلاحقة بذلها علماء الغرب لدراسة معظم لغات العالم وصفاً وتاريخاً ومقارنةً، والوصول من ذلك إلى نظرية أو نظريات تُعين على تحديد وتدقيق مناهج الدراسة اللغوية ووسائلها»².

ومن أبرز ما أنجزته تلك الجهود من الدقة المنهجية - تحديد مستويات الدرس اللغوي ووضع مصطلحات لكل منها؛ إذ وضع الغربيون للعلم الذي يدرس المستوى الصوتي مصطلح (phonetics) (أي: علم الأصوات) ووضعوا للعلم الذي يدرس المعنى مصطلح (semantics) (أي: علم الدلالة، ولكل علم من علوم اللغة فروع تابعة³.

وكان من أثر هذا التحديد - تخصيص مفهوم (النحو) في بداية الأمر بفرعين لغويين:

أ- الصرف: وهو يدرس بنية الكلمة وتغيراتها، ويصطلحون عليه بـ (morphology).

ب- التركيب: وهو «يُعنى أول كل شيء بترتيب الكلمات: أي أنه يدرس الطرق التي تتألف بها الجمل من الكلمات»⁴، كما يهتم بقوانين المطابقة من حيث العدد والنوع والوظائف النحوية للكلمة، و يصطلحون عليه بـ (syntax)⁵.

ف (النحو) بهذا المحتوى يُسمى عند الغربيين علم (القواعد)⁶ المصطلح عليه بـ (grammar)

¹ - ينظر: علم اللغة العربية: 42.

² - علم اللغة: 11.

³ - ينظر: مقدمة لدراسة علم اللغة: 171-180.

⁴ - علم اللغة: 226، و ينظر: مقدمة لدراسة علم اللغة: 87 و 110.

⁵ - ينظر: دراسات في علم اللغة (القسم الأول)، د. كمال بشر، دار المعارف، مصر، ط1 (1969م): 29. ومقدمة لدراسة علم اللغة: 108.

⁶ - ظاهرة الإعراب في النحو العربي، د. أحمد سليمان ياقوت، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1 (1981م): 21، ومعجم علم اللغة النظري، د. محمد الخولي: 279، نقلاً عن: علم التصريف العربي، د. صالح الفاخري، منشورات elga، مالطا، دط (1999م).

33/1:

(¹، أو التركيب القواعدي (grammatical structure)²).

ثمَّ ازداد علم اللغة الحديث دقَّةً في سنِّ المصطلحات، ففصل الصرف عن التركيب فصار كلُّ منهما علماً مستقلاً عن الآخر حتَّى كاد مصطلح النحو يختفي من الاستعمال في البحث العلمي الحديث للغة؛ إذ تكاد مراجعته تتفق على تصنيف تنقِّع الدراسة اللغوية على أساسه أربعة فروع أو علوم³:

- أ- علم الأصوات (phonetics) :موضوعه الصوت اللغوي (phoneme) من حيث نطقه واستماعه وتصنيفه ووظيفته في الكلام وتحليل ذلك كله.
- ب- علم الصرف (morphology): وموضوعه الكلمة الدالة من حيث تقسيمها وبنيتها والتغيرات التي تطرأ عليها ومعاني هذه التغيرات.
- ج- علم التركيب (syntax): وموضوعه الجملة من حيث قوانين التأليف فيها والعلاقات النحوية بين الكلمات بعضها وبعض، وبين الجمل بعضها وبعض.
- د- علم الدلالة (semantics) : وموضوعه دلالة الكلمة مفردةً ومركبةً، وتطوُّر تلك الدلالة وما يتصل بذلك.

و بعض هذه المراجع يُدرج العلم الأخير - علم الدلالة - في علم أوسع مجالاً، وهو علم المفردات (vocabulary) الذي يشمل فرعين آخرين: الاشتقاق (etymology)، والمعجم (lexicography) الذي يدرس الدلالة المعجمية للكلمات ومكوّناتها وتطوُّرها⁴.

والمهمُّ هنا تحرير مفهوم الفرع الثالث - علم التركيب أو النحو - الذي استقرَّ عند اللغويين المحدثين العرب والأجانب على أنّه العلم الذي يدرس أحكام تأليف الكلمات بعضها مع بعض وأنواع الجمل، وما يعتري أجزاءها من تقديم وتأخير، وحذف وإظهار وتكرار، وما تؤدِّيهِ تلك الأجزاء من وظائف تركيبية من فاعلية و مفعولية وإضافة، وما تحمله الجمل من معاني الإخبار والإثشاء.

الخاتمة:

إنَّ هذا الاستقراء التاريخي لتطوُّر مفهوم النحو علمياً - مكن من الوصول إلى النتائج الآتية:

- أ- ترتَّب على عرض أشهر المعاني اللغوية التي تُستعمل فيها مادّة (ن ح و) أنّ أكثرها ارتباطاً بالمعنى الاصطلاحيّ معنيان: القصد و الطريق.

¹ - يقول الدكتور محمود السعران - بعد تقرير العلاقة بين الفرعين (الصرف والتركيب) -: "...فالأغلب أن يدرس علم المورفولوجيا أي الصرف والنظم أي التركيب الخاص في اللغة من اللغات معاً، وفي بعض الحالات يدرس الاثنان على أنهما طبقة واحدة أو قسم واحد من طبقات (= أقسام) الظواهر اللغوية إي في النحو ". علم اللغة: 227.

² - ينظر: أسس علم اللغة: 45، و فصول في علم اللغة العام: 32 .

³ - ينظر: علم اللغة: 98-199 و 216-226 و 226-240 و 261-288، وعلم اللغة العربية: 31، ومقدمة لدراسة علم اللغة: 35-36.

⁴ - ينظر: أسس علم اللغة: 44، وفصول في علم اللغة العام: 32، ومقدمة لدراسة علم اللغة: 175.

- ب- طُبِعَ مفهوم هذا المصطلح بالشمول الدالّ على بحث جوانب اللغة كلّها في جميع الحضارات الإنسانية التي عرفت هذا النوع من البحث العلميّ.
- ج- أنّ من الآثار الناتجة عن شمول النحو - ارتكاز تصنيف علماء العربية على ثنائية اللغويّ والنحويّ، ممّا دلّ على تضمّن العنصر الثاني لِمَن غَلَبَ التصريفُ على دراسته اللغويّة.
- د- يمكن القول: إنّ المصطلح المدروس قد مرّ عند العرب بتخصيصين دلاليّين بعد الشمول، وقد نصّ ابن جنيّ على الأوّل منهما في قوله عن النحو: "ثُمَّ خُصَّ به انتحاءُ هذا القليل من العلم"، وأمّا الثاني فيشترك فيه العرب وغيرهم وهو الذي استقرّ عليه مفهوم المصطلح؛ أي دراسة التركيب.
- هـ- تطوّر مفهوم الفرع الثالث - علم التركيب أو النحو- و استقرّاه عند اللغويّين المحدثين العرب والأجانب على أنّه العلم الذي يدرس أحكام تأليف الجمل، وما يعتري أجزاءها من تغيّرات، وما تؤدّيّه تلك التغيّرات من وظائف تركيبية ومعاني إخبارية و إنشائية.

قائمة المصادر والمراجع:

- أسس علم اللغة، ماريو باي، ترجمة وتعليق د.أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط8 (1419هـ/1998م).
- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، د.نايف خرما، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط2 (1398هـ/1978م).
- الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجي، تحقيق د.مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط4 (1402هـ/1982م).
- الخصائص، ابن حني، تح.د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 (1424هـ/2003م).
- الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، محمد حسين آل ياسين، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ط1 (1400هـ/1980م).
- دراسات في علم اللغة (القسم الأوّل)، د. كمال بشر، دار المعارف، مصر، ط1 (1969م).
- شرح الحدود النحوية، جمال الدين الفاكهي، تحقيق د. الطيب الإبراهيمي، دار النفائس، بيروت، ط2 (1417هـ/1996م).
- ابن عصفور والتصريف، د.فخر الدين قباوة، دار دار الفكر المعاصر - بيروت، و دار الفكر - دمشق، ط1 (1971م).
- علم التصريف العربي، د.صالح الفاخري، منشورات elga، مالطا، ط1 (1999م).
- علم اللغة، د. علي عبد الواحد زافي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط11 (2006م).
- علم اللغة العربية، د.محمود فهمي حجازي، وكالة المطبوعات الكويت، ط1 (1973م).
- علم اللغة (مقدمة القارئ العربي)، محمود السعوان، دار النهضة العربية، بيروت، ط1 (2006م).
- اللؤلؤ النظيم في روم التعلّم والتعليم، أبو يحيى زكريا الأنصاري، مطبوع مع شرح وتعليق الدكتور عبد الله نذير أحمد المسمى "خزانة العلوم في تصنيف الفنون الإسلامية ومصادرها، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط1 (1419هـ/1998م).
- فصول في علم اللغة العام، محمد علي عبد الكريم الرديني، عالم الكتب، ط1 (1423هـ/2002م).
- الفهرست، محمد ابن إسحاق النديم، تحقيق د.مصطفى الشويمي، دار التونسية للنشر، و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1 (1406هـ/1985م).

- الكتاب، سيبويه، تح عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط1، د.ت.
- لسان العرب، دار صادر، بيروت، د ط، د.ت.
- لمع الأدلة في علم أصول النحو (ضمن: رسالتان لابن الأثير)، أبو البركات الأثيري، تحقيق أسعيد الأفغاني، دار الفكر، ط2 (1391هـ/1971م).
- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، د. مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت، ط3 (1406هـ/1986م).
- مراتب اللغويين، أبو الطيب اللغوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط1 (1423هـ/2002م).
- مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق ناصر أحمد الدمياطي، مكتبة فياض للتجارة والتوزيع، المنصورة - مصر، دط (1430هـ/2009م).
- مقدمة لدراسة علم اللغة، د. حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دط (2003م).
- النحو لغة واصطلاحاً، السيد علي حسن مطر، مقال منشور بمجلة (تراثنا)، العدد: 28، موقع ويكيديا، تاريخ الزيارة: 2014/05/28م.
- نشأة الدراسات اللغوية وتطورها عند العرب بين وقائع الاتصال ودعوات الإنماج، عبد العزيز أبليله، بحث مخطوط.